# توماسو كمبانلا

## لألفرد فبر

للأستاذ عبد الكريم الناصري

إنا نصيب في بحوث توماسو كبانلا[1] — وهو كبرونو[2] دومنيكي من جنوبي إيطاليا — ملامح من مقالات الإنجليز والألمان في العقل الإنساني ، أعني من النقد الحديث[3]. وُلِدَ هذا البطل الجريء من أبطال الإصلاح الفلسفي والحرية الإيطالية بقرية من « ستيلو » من أعمال كالَبْريا ، سنة ١٥٦٨ ، وتوفي في باريس ، سنة ١٦٣٩ ، بعد أن أنفق سبعة وعشرين عاماً في غياهب السجن بنابُلي ، بتهمة التآمر على الحكم الأسباني .

وكبانلا تلميذ من تلامذة الشكاك اليونان . وقد علمته هذه المدرسة أن الميتافيزيقا تقوم على الرمل إن لم تُبْنَ على أساس نظرية في المعرفة . ومن ثمّ تبحث فلسفته أولَ ما تبحث في المسألة الصورية .

تنشأ معرفتنا من مصدرين : التجربة الحسية ، والاستدلال العقلي ؛ فهي إما « تجريبية » وإما « نظرية » .

هل المعرفة المحصّلة بالإحساس يقينية ؟

يرى أغلب القدماء أن شهادة الحواس يجب أن تُغفل ، ويلخص الشكاك شكوكهم في الحجة التالية : ليس للموضوع الذي تدركه الحواس إلا تكيُّفاً في الذات ، وإن الواقعات ( Facts ) التي تحصل — فيما تخبرنا الحواس — خارج النفس ، إنما تحصل على الحقيقة فيها . الحواس هي حواسي ؛ إنهـا جزء مني ؛ والإحساس واقعة تحدث فيّ ؛ وهي واقعة أعللها بعلة خارجية ، في حين أن الذات المفكرة قد تكون علتها المعيّنة ولكن غيرَ الواعية ؛ فليس هذا التعليل بأعسرَ من ذاك . وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف نستطيع أن نصل إلى علم يقيني بوجود الأشياء الخارجية وطبيعتها ؟ إذا كان الموضوع الذي تدركه حواسّي لا يزيد على أنه إحساسي ، فكيف أبرهن على أنه موجود في الخارج ؟ يجيب كبانلا : بأني أبرهن على ذلك « بالحس الباطن » . فالإدراك الحسي يجب أن يستمد صفة اليقين — التي لا يملكها في نفسه — من العقل : فالعقل يحيله معرفةً . قد يشك الميتافيزيقي في صدق الحواسّ ، ولكنه لا يستطيع أن يتهم الحس الباطن . بيد أن الأخير يكشف لي عن وجودي بلا واسطة ؛ ويقين لا ظل من الشك فيه . إنه يكشف لي عن نفسي كائناً يوجد ، ويفعل ، ويعرف ، ويريد ؛ ولكن هيهات أن يفعل ويعرف كل شيء . إنه — بعبارة أخرى — يكشف لي عن وجودي وحدوده معاً . ومن ثم أستنتج بالضرورة أن هناك كياناً يحدُّني ، أو عالماً موضوعياً يختلف عني ؛ أو ( لا أنا ) . وهكذا أبرهن بالمنهج البَعْدي a poteriori على حقيقة فطرية ، أو قبلية a priori أو سابقة على كل تفكير : وهي أن وجود ( اللا أنا ) هو علة إدراكي الحسي .

أتدحض هذه الحجة مذهب الشك ؟ الحق أنها لا تبلغ من ذلك كثيراً ، وإن فيلسوفنا ليعترف بهذا ، ولا يدعي لنفسه النصر والغلبة . فإن قولك إن الحواس صادقة في إراءتنا الموضوعات الخارجية ، لا يلزم عنه بالضرورة أنها ترينا هذه الموضوعات على ما هي عليه . إن التطابق الذي تفترضه « التوكيدية »[1] بين نحو تصوُّرنا الأشياء ونحو وجودها إنما هو — في رأي كبانلا — نتيجة لتماثل ( analogy ) الموجودات ، وهذا بدوره نتيجة لحقيقة ممتنعة على البرهان : وهي أصلُ الموجودات الموحَّد . ثم إنه لا يسلم أن لدى النفس الإنسانية علماً مطلقاً بالأشياء . قد تكون معرفتنا صحيحة ، ولكنها لن تكون تامة أبداً . وهي إذا قيست بمعرفة الله تافهة أشبه بلا شيء . وقد كنا خُلَقاء أن نعرف الأشياء على ما هي عليه ، لو كانت معرفتنا فعلاً محضاً : لو كان

---

(١) Tommaso Campanella

(٢) انظر العدد ( ٦٤٠ ) من « الرسالة » .

(٣) أسمى (لوك) و (هيوم) وآخرون بعض كتبهم (بالمقالات) . مثلا : « مقال في العقل الانساني » ، « مقال في الطبيعة الانسانية » . وبعد (كانت) مؤسساً لفلسفة النقد ، أي نقد العقل والتحقق من حدوده وقواه ، وهل هو أهل لحل المشاكل الميتافيزيقية العليا . بيد أن أبحاث لوك وباركلي وهيوم مهدت لظهور فلسفة النقد وفهم هؤلاء الفلاسفة ضروري لفهم كانت (المعرب) .

(١) Dogmatism — التوكيديون هم القائلون بإمكان معرفة الحقائق القصوى ( المعرب ) .

إدراً كنا خلقاً . إنا لأجل أن نعرف الأشياء على ما هى عليه ، أو بصورة مطلقة ، يجب أن نكون « المطلق » من حيث هو ، أى نكون « الخالق » نفسه . على أن معرفتنا وإن كانت مثلا أعلى لا يستطيع الإنسان تحقيقه — وهنا دليل بيّن على أن هذه الدنيا ليست بداره الحق — فإن من واجب المفكر أن يشتغل بالبحث الميتافيزيقىّ .

والميتافيزيقا ، أو الفلسفة الكلية ، باعتبار موضوعها ، هى علم مبادئ الوجود أو شروطه الأولى ؛ وهى ، باعتبار مصادرها وآلاتها ومناهجها ، علم العقل ، الذى يفوق العلم التجريبى يقيناً وسلطاناً .

والوجود أو الكينونة معناها الصدور من مبدأ والرجوع إليه . ترى ما هو هذا المبدأ ؛ أو بالأحرى ما هى هذه المبادئ ؟ فإن الوحدة المجردة شىء عقيم . وبعبارة أخرى : ما هى شروط وجود الوجود ؟ الجواب :

١ — أن يكون « قادراً » على الوجود .

٢ — أن يكون فى الطبيعة فكرة أو « مثال » ، هذا الوجود تحقيق له (لأن الطبيعة لا تحدث شيئاً بغير علم) .

٣ — أن يكون ثمّ « نزوع » إلى تحقيق المثال . فالقدرة والمعرفة والإرادة هى مبادئ الوجود النسبىّ . ومجموع هذه المبادئ ، أو (بالأحرى) الوحدة العليا التى تحويها ، هى الله . فالله هو القدرة المطلقة ، والمعرفة المطلقة ، والإرادة أو المحبـــة المطلقة .

والمخلوقات أيضاً قدرة وإرادة وإدراك ، وحظوظها من هذه الصفات تتفاوت بتفاوت قربها من مصدر الأشياء . فإن الكون نظام متدرّج ، ينتظم العالم العقلىّ ، أو اللاهوتىّ أو الميتافيزيقىّ (الملائكة ، والنفس العامة ، والنفوس الخالدة) والعالم السرمدىّ أو الرياضى ؛ والعالم الزمنىّ أو الجسمانى . وكل هذه العوالم — حتى العالم الجسمانى نفسه — تشارك فى المطلق ، وتعكس عناصره اللاهوتيّة الثلاثة : القدرة والمعرفة والإرادة .

كلّ موجود فإنما يصدر من الكائن المطلق ويسعى إلى الرجوع إليه . وبهذا المعنى يصحّ أن نقول إن الوجودات المتناهية كلها بلا استثناء « تحبّ » الله ؛ كلها دينّية ؛ كلها تسعى إلى أن تحيا حياة الخالق اللانهائية ؛ كلها تفزع من اللاوجود ، وبما أنها جميعاً تحمل فى نفسها اللاوجود بالإضافة إلى الوجود ، فكلها تحب الله أكثر من ذاتها . إن الدين ظاهرة كلية ، مصدرها توقف الأشياء كلها على الكائن المطلق ؛ وإن علم الدين أو اللاهوت ليسمو على الفلسفة سمو الله على الإنسان .

بالرغم من كل هذا الذى سلمه كيانلا للكاثوليكية ، وبالرغم من رسالته الموسومة « بالإلحاد المتصر » ، كانت محاولاته فى الإصلاح موضع ريبة الكنيسة ، فلم يتحقق منها شىء . وقد يئست الفلسفة بعده أن تظفر بمزيد من التقدم فى إيطاليا ؛ فتراها من ذلك الوقت تقيم فى البلدان التى أنارها أو حررها الإصلاح الدينى : فى إنجلترا ، وعلى ضفتى الراين[1] .

( بغداد ) عبد الكريم الناصرى

(١) يعد جيوفانى باتيستا ڤيكو (Vico) — المتوفى عام ١٧٤٤ — أشهر الفلاسفة الإيطاليين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد عرف خصوصاً بكتابه « العلم الجديد » ( نابلى — ١٧٢٥ ) وهو من أولى المحاولات لإيجاد فلسفة التاريخ . وقد حاول مفكرون محدثون قديرون من أمثال جالوبى ، وروسمينى ، وجيوبرتى ، وماميانى ، وفرارى — أن يعيدوا إلى إيطاليا ما كانت تتمتع به فى عصر الإحياء من جاه فلسفى . انظر فى ذلك رفائيل ماريانو : « الفلسفة المعاصرة فى إيطاليا » :
Mariano: "La philosophie contemporaine en Italie," Paris, 1868
( المؤلف )